تمهيـــد
جسر بين الثقافات أم أداة للصراع بينها؟

النظرة إلى الصحافة الأجنبية لدى قطاعات كبيرة من الرأي العام العربي تشوبها شكوك وريب، تصل في بعض الأحيان إلى حد الاتهام بالعداء لشعوبنا وثقافتنا العربية الإسلامية، ولكن ذلك لا يمنع أيضا من أن يكون هناك قطاعات أخرى من الرأي العام العربي تعطي للإعلام الغربي مصداقية كبيرة، وتحرص على أن تكون الإذاعات والفضائيات الأجنبية ضمن أهم مصادرها الإعلامية؛ وفي سنوات ماضية كان البعض يتعلق بأمل: أن يمثل ما ينشر ويذاع في أوروبا وأميركا عن بلادنا – وخاصة ما يتعلق بحقوق الإنسان– نوعا من الضغط السياسي على النظم العربية الديكتاتورية، أو تلك التي تتظاهر بالديمقراطية.

ولقد مارست شخصيات متغربة تنتمي لبلادنا الكتابة التحريضية في بعض وسائل الإعلام الأجنبية، كما أفسحت وسائل إعلام غربية مساحات لرموز متعصبة من الأقليات لنشر أكاذيب ومبالغات وفتن.

ويمكنني القول: إنني عرفت نماذج من أولئك المتعصبين ممن تعاملوا مع بعض المراسلين الأجانب وأمدوهم بحقائق مغلوطة وبأكاذيب؛ نكاية في السلطات الظالمة، أو حقدا على هويتنا الحضارية العربية الإسلامية.

ولا غرابة في ذلك، فالحضارة الغربية في نظر الشرق الحضاري لا تقبل في علاقاتها بنا بغير الاستغلال والهيمنة والسيادة، وما يفرضه ذلك من أدوات وأساليب التسميم السياسي وإثارة الفتن.

ومما يثير الأسف: أن هناك في الغرب بقيادة أميركا من لايزالون يصرون على استخدام الصحافة والصحفيين الأجانب ضمن أدوات الصراع، هل ينسى أحد قرار القيادة العسكرية الأميركية بإلحاق مراسلين من داخل وخارج أميركا مع قوات غزو العراق في عام 2003؟ لقد استخدمت واشنطن هؤلاء الصحفيين بشكل شبه صريح، إذ لم يكن مسموحا لهم ببث أو إرسال مواد صحفية دون موافقة عسكرية صريحة.

ولعل كثيرين ممن كانوا مسئولي تحرير الصحف ومواقع الإنترنت الإخبارية أو غرف الأخبار في محطات التليفزيون في تلك الأيام يتذكرون أيضا أن وكالات الأنباء العالمية الكبرى جرى استخدامها أميركيا لتسريب أخبار بعينها تحقيقا لأهداف عسكرية بحتة، ويحضرني في هذا المقام مثال لا يقبل الجدل؛ هو خبر بثته الوكالات آنذاك عن سقوط الناصرية وميناء أم قصر جنوبي العراق، ولولا تحريك رئاسة تحرير قناة الجزيرة مراسلا كان موجودا بالبصرة إلى هذين الموقعين للتحقق من صِدقية الخبر بالصور الحية على الهواء مباشرة؛ لكان ذلك التسريب المتعمد والكاذب قد أتى أُكله العسكرية الإستراتيجية مبكرا جدًّا.

وعلى أي الأحوال، فإن التطورات المهنية والتقنية المتلاحقة في عالم الإعلام منذ منتصف العقد الأول في القرن الواحد والعشرين أضحت تفرض على مراسلي الصحافة الأجنبية دورا مختلفا عن ذي قبل، فلم يعد التضليل أو التعتيم ممكنا بنفس السهولة التي شهدتها العقود الأخيرة من القرن العشرين، وإن كانت وسائل الإعلام في الغرب استُخدمت كأداة من أدوات الصراع الدولي، سواء بإرادتها أو بدون إرادتها في الماضي، فلست

أظن أن المستقبل المهني القريب يمكن أن يتسامح مع استمرار إساءة استخدام الإعلام والإعلاميين.

إن عالمنا تتزايد فيه بسرعة اتجاهات التمايز الحضاري برغم ضغوط العولمة، ولقد بدأنا نجد أنفسنا أمام ثلاث حضارات إنسانية، لكل منها ثقافتها وقيمها وتقاليدها، **وأقصد بذلك**: الحضارة الغربية والحضارة الآسيوية والحضارة الإسلامية، ومن الملاحظ أن الحضارات الثلاث تزيد من الاهتمام بشفافية وتوازن ومهنية الإعلام والإعلاميين في كل شعوبها وأقاليمها.

لقد بدأنا نرى بوادر تحرر الصحافة الأجنبية من إرادات النظم الحاكمة وإمبراطوريات المال، لعلنا أيضا نأمل ألا تسمح شرائح المتلقين لوسائل الإعلام أو الإعلاميين أن يكونوا أداة للصراع بين الحضارات بل جسرا بينها.

إن المراسل الأجنبي في بلادنا لكي يحقق دوره في عملية التجسير الحضاري مطالب بكثير من التجرد من القناعات والأفكار المسبقة عن ثقافتنا الإسلامية بصفة خاصة، وهو مطالب كذلك أن يسمو فوق المغريات، وأن يمارس الصحافة خدمة للحقيقة وللرأي العام، ولا يقبل أن يصبح ترسا في ماكينة صراع المصالح بين الدول أو الهيئات.

وعلى الجانب الآخر، فإن أصحاب الحضارة العربية الإسلامية مطالبون بالحرص على توضيح وتقديم ثقافتهم بأنفسهم، وألا يتركوا فرصة للحوار والرد والتصحيح دون انتهازها.

إن الحضارة الإسلامية تهدف من علاقاتها بغيرها من الحضارات إلى إبلاغ رسالة الإسلام ومحتواه، بدون إكراه أو عنف أو قتال لإجبار الناس على اعتناقه، فالقرآن يؤكد: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، وبالإضافة إلى البلاغ يأتي التعارف وما ينتج عنه بالضرورة من تبادل عادل للمصالح، إذ يقول القرآن: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾.

إن القيمة العليا التي يصر الإسلام على أن تسود وتحكم العلاقات بين الأفراد بعضهم ببعض، وعلاقات الأمم والشعوب فيما بينهم هي العدالة، ولا شك أن العدالة هي التي تميز عالم البشر عن عالم الغابة والحيوانات.

* * *

obeikandl.com